

## عوامل الضعف في تكوين الفرد

وطرق علاجها في الأسرة والمدرسة

لحضرة صاحب السعادة بهي الدين بركات باشا

” هذا المقال كان موضوع محاضرة فبسة القاها حضرة صاحب  
السعادة بهي الدين بركات باشا في مسكر الرواد بمدينة القاهرة مينا فيها  
آثار التربية اليتية في مستقبل الفرد ووسائل تهذيب هذه التربية - وقد  
استأذا سعادته في نشرها فأذن بد أن تفضل فأناد الطر في بعض نقطها  
وتقع بعض تفاصيلها “

المحرر

استوقف نظري وأنا أطالع إحدى المجلات ما قرره أحد الخبراء الزراعيين الامريكيين  
إذ قال : ” ان الفلاح المصري وصل في بعض الشؤون الزراعية بفضل مشابرة وتجاريبه  
واجتهاده الى درجة لم يعمل اليها العلم الحديث . ولقد علمته التجارب من طرق الزراعة ووسائلها  
ما يأتي بأحسن الثمرات “ .

ولقد يدعش المرء لهذه الشهادة ، ولكنه اذا فكر في أن الحاجة تفتق الحيلة ، وفي أن  
الضرورة أم الابتكار ، عرف كيف تستطيع الجهود المتضافرة المتواصلة أن تصل إلى  
ما لا يستطيعه العلماء أنفسهم .

وبعد فهذه شهادة أحد العلماء لنتيجة ما وصلنا اليه بفضل عنايتنا ببناتنا وزرعنا . فهل  
نحن وصلنا الى بعض هذه النتيجة فيما يتعلق بتربية أبنائنا وبناتنا ؟

إغش أي مجلس من مجالس الفلاحين تجدهم يبحثون في مواعيد الزراعة وفي العلامات  
المبشرة بنجاحها ، وفي طرق ربيها وحرثها ، وفي كيفية تسميدها وخدمتها ، وفي الوسائل الناجمة  
في القضاء على آفاتها وغير ذلك .

ثم اغش مجالس أهل المدن ، تجدهم يناقشون في سياسة الأحزاب والمفاوضة بين الزعماء  
ودرجات الموظفين وأسباب اختيار فلان للوزارة دون فلان . واكنك لن تجد أوقلاً تجد  
مجلساً يناقش في خير الطرق لتربية الأطفال وأحسن الوسائل لمعاملتهم وتقويم الماوج فيهم .

وإذا صادفت مجلسا مثل هذا فستمع المتحدثين ينسبون العيب الى المدرسة والقصور الى الحكومة ، ويندر أن تصادف من يعرف أن للطفل ذهنية كالورق الشفاف ينطبع عليها كل ما يمر بها، وإذا كرة كالمراة ينعكس فيها كل ما يراه، وأن لهذا الانطباع والانعكاس أثرهما الباقى فى نفس الطفل وفى أخلاقه حتى بعد أن يتكون ويصير شابا ثم يستوى رجلا .

فهل فكرنا ، ونحن نأخذ بأسباب تربية أولادنا ، فى أن نكف عن ارتكاب النقائص أمامهم وفى أن نكون نموذجا حسنا لهم ، حتى نحفظ تلك الذهنية وتلك المراة بيدين عن كل المؤثرات السيئة .

ولعل جمهرة الآباء والأمهات عندنا لا يشعرون بأن عليهم واجبا لأولادهم ، ولا بأن الأمثلة السيئة التى يراها الطفل ستلازمه حتى مدى الحياة .

السنا نرى كثيرا من الآباء والأمهات يعوّدون أولادهم الكذب ويطلبون فيهم روح الحسد بما يروون أمامهم من القصاص وما يوحون اليهم من الإيحاءات ؟ كم من الآباء والأمهات يتنبهون إلى أن كثيرا من الحوادث العائلية والمشاحنات الفردية لا يجوز ذكره أمام أبنائهم وبناتهم حتى لا يفقدوا روح العطف على أهلهم وحتى ينشأوا طاهرين من عيوب هؤلاء الأهل مبرأين من نقائصهم ؟ ولم منهم يتنبهون إلى أنهم إنما يفرسون بأيديهم بذور الحقد والحسد بين أبنائهم عند ما يقول الواحد منهم لابنه : أنا أحبك أكثر من أخيك . أو : كل هذه القطعة من الحلوى ولا تجرب أخاك . أو خذ هذا القرش ولا تقل لأخنتك ، وما إلى ذلك مما يعوّد الطفل منذ نشأته عدم الاخلاص وقلة الصراحة والالتجاء إلى التخفى والمواربة والمخاتلة فى كل ما يفعل ؟

كذلك كان من نتائج إهمالنا الوسائل الصالحة فى تربية الأولاد ، أننا ونحن نعمل على توفير أسباب الرزاهية المادية لأبنائنا نفعل الناحية المعنوية إغفالا تاما . فلقد كنا إلى عهد غير بعيد نسمح أن الولد لا يجوز له أن يجالس أباه ، وأن الزوجة لا يصح لها أن تأكل مع زوجها ، وأن الطاعة الذليلة العمياء واجبة لكبير البيت حتى فيما لا تجوز الطاعة فيه . وما درى أصحاب تلك المبادئ القريبة أنهم كانوا يزرعون بذلك روح الذل والعبودية فى أبنائهم وبناتهم ويعطلون فيهم كل الصفات التى تؤهلهم لأن يكونوا أفرادا أحرارا أعزة محترمين .

حقا لقد تغيرت هذه الأحوال بعض الشيء ، ولكن التغير قد تناول الشكل وحده ، أما الجوهر فلا يزال على ما كان عليه ، وما قئىء كثير من الآباء يتوهمون الأدب والطاعة فى نوع من التربية يجعل من أبنائهم آلات صماء عمياء فلا رأى ولا تفاهم ولا اقتناع . والأدب فى عرفهم أن يجلس الطفل فى حضرتهم جاسة خاصة ، والألا يشترك فى الحديث ، وألا

يسدى سروره أودعشه مما يسمع ، وألا يضحك ، وألا يضحك ، وألا يضحك واقعة سمعها تروى على غير حقيقتها ، وألا يبكي إذا ضرب . والطاعة في عرفهم أيضا أن يتلقى الطفل الأوامر فينفذها مهما كانت ، حتى ولو لم يفهمها .

لا شك أن أولئك الآباء يجهلون أن الطفل في حاجة دائمة إلى الحركة ، وأن السكون والهدوء في الطفولة الأولى علامة من علامات المرض والتمول ، وأن الطفل الذي يضرب ولا يبكي إنما هو طفل قد طبع إلى النذل والاستكانة وضعف العاطفة وفقدان الإحساس ، وأن الطفل الذي لا يسمح له بأن يفكر ويناقش ويمارض ويستفهم ويقتنع لا يمكن أن يكون في يوم من الأيام رجلا حرا يعتر بقله ومداركه ومواجهه .

الأدب والطاعة شيء ، والخضوع والتسليم شيء آخر . فليفهم الآباء ذلك حق الفهم فلا يخلطوا بين الأمرين . ولو فكر الوالد في حقوق ابنه عليه لما جعل لتفوقه المادى على هذا الابن ولا لتعرة الأبوة غير المستنيرة أثرا ظاهرا في تربيته . وإنه لما يدعو إلى الأسف حقا أن نرى عقلية الآباء تتجه اتجاها خاطئا حتى ليريدون أولادهم على أن يفقدوا ما فطروا عليه من حب البحث والفهم والأخذ والرد وكل ما من شأنه أن يدمم الإعداد الصحيح لمعترك الحياة .

إن الطفل الذي يربى على الخضوع والاستكانة ينتقل طاغية مسنبا يجب أن يذيق الناس ما ذاق منهم إذا ولى أمورهم . وإني لا أزال أذكر أنى في المراكز الحكومية التي شغلتها كنت أعمد إلى كثير من العناء لأحمل الموظفين الذين يعملون تحت رياستي على أن يكونوا أحرارا في إبداء آرائهم . فلقد انطبع في أذهانهم أن احترام المرءوس لرئيسه لا يكون إلا بافناء شخصيته أمامه والمواقفة على كل ما يصدر عنه وإن كان خطأ . وكثيرون من المرءوسين يتوهمون أن من عارض الرئيس لا يمكن أن يكون محلا لرضاه فالتحيز كل التحيز في أن يسايره ويقرظه ويحذمه حتى في غير مالا يصح وما لا يجوز . فامرئى كيف يتحقق التعاون بين الرؤساء والمرءوسين وهذه حالتهم النفسية ؟ وكيف يتأتى أن يرق مجتمع هذه عقلية أفراده ؟

وإني لأذكر كذلك أنى لاحظت ، لما كنت وزيرا للعارف ، عدم توافر الاتصال بين رجال التعليم ، ذلك الاتصال الذى يسهل عليهم بحث نظم التربية والتعايم ويمكنهم من توحيد الجهود وتنسيقها وتوجيهها لترقية تلك النظم وإصلاح ما فيها من العيوب . ولقد فكرت يومئذ في إنشاء مجلة تخصص لشؤون التعليم وتكون في الوقت نفسه أداة الاتصال بين رجاله ، ودعوت فتلا بعض كبار موظفى الوزارة الفنين لأباحثهم فى الأمر . ولشد ما هالنى سؤال أحدهم إذ قال : " وهل يكون لتلك المجلة حتى نقد النظم الحاضرة ؟ " قلت : " نعم " لأن سبيل التقدم والترقى إنما هو معرفة عيوب الحاضر ، ولا يمكن لنا أن نعرف هذه العيوب إلا من طريق النقد . وما دامت البحوث دائرة فى الحدود العالمية والفنية لا تتعداها إلى الأشخاص والسياسة والدين فجالها واسع أمام الباحثين " . فأجابنى الموظف وقد شعر

بوقع سؤاله على نفسه ، بأنه إنما أراد الاستفسار لأن الفكرة كانت قد عرضت في عهد أحد الوزراء السابقين فاعترض عليها وقال : كيف يسمح لرجال التعليم ، ومهمتهم الدفاع عن الوزارة ونظمها ، بنقد أساليب التعليم ومناهجيه ؟

أرجو ألا يدهشكم ذلك . فلقد كان الوزير الذي أشير إليه رجلا معروفا بين الناس بالحكمة وأصالة الرأي وحسن التدبير ، ولكن الأمور تشابهت علينا والتبست ، والتربية البيئية العتيقة افقدتا موهبة التمييز فوائده النقد للاصلاح ومعايب النقد لالتشهير .

وهناك نتيجة أخرى لفوضى التربية المنزلية ، وهي أننا بما نسمعه الأطفال من مشاحنات آبائهم وذويهم ، ومن الخلفات الصغيرة والمشادات الحقيرة أمامهم ، عملنا ونحن لا ندري على تعويدهم احتقار أبويهم وإخوتهم الكبار والانتقاص من الاحترام الواجب لهم ، كما اضعفنا فيهم روح التعاون والتضامن في البيت ، وجعلناهم يألنون سفاسف الأمور والمناظرات الوضيعة والحالات المبتذلة ، فإذا كبروا لم يعفوا عن شيء من هذا ولم يتورعوا عن أن يأتوا مثله في صور مكبرة وفي ظروف تتجاوز حدود البيت والأسرة إلى الحياة العامة التي يعملون فيها . ولا شك أن ما نشاهده في بعض البيئات من الاستهانة بكرامة الغير واستباحة السمعات

والأعراض ، ومحاولة التصغير من شأن العاملين وتعمد الخط من قيم المجدين إنما هو أثر من آثار تلك التربية البيئية التي تلقنها الأطفال فشبوا عليها واستساغوها وأصبحت ديدنهم في الحياة وهل ما نعلمه من أعمال بعض المديرين في الأقاليم وبعض الرؤساء في الدواوين ، إذ يتريدون أن يجعلوا لأنفسهم مكانة واحتراما ، فيحاولون تشويه عمل مفلأئهم أو إبطاله ، وهل ما نسمعه عن فشل أصاب جماعات أنشئت لتعدل متألثة فتخاذلت وتحاسدت ، هل كل ذلك سوى أثر من آثار التربية البيئية التي ربهم على الأنانية وحب الذات والرغبة في الاستئثار بالنجاح ، فخرجوا إلى الحياة لا يفهمون روح التضامن والتعاون ؟

ولهذه المناسبة أذكر أني كنت في تركيا سنة ١٩٢٩ وذهبت لمشاهدة مباراة في لعبة كرة القدم بين الفريقين التركي والمصري . فلقد كان المصريون أكثر دربة ومهارة وصرعة والمساما باصول اللعب ودقائقه ، ولكن روح التعاون كانت تنتصمهم . فكنت أرى الواحد منهم إذا بلغت الكرة قدمه يستأثر بها ويحاول أن يقاوم المتكاثرين عليه ويمرّق من وسطهم ليبلغ الهدف وينال وحده فخر إصابته . وهكذا كانت نفوتهم ثمرات التعاون الواجب في هذه اللعبة ، وهكذا انتشر عليهم الفريق التركي ، وما كان ليتصمر لولا ذلك القمص الذي شاهدته في اللاعبين المصريين والذي لا أرجع أسبابه إلا إلى أنهم لم يتعلموا التعاون والتضامن في البيت قبل أن يبرزوا إلى ميادين الحياة .

التعاون سر من أسرار النجاح خفي علينا أنه يقوى الضعفاء ويزيد في قوة الأقوياء فيجب أن نربي أولادنا على حبه والعمل من طريقه . أما أنت نتركهم للصدف ونندعهم

للاقدار كأعشاب الغابة ، تموز فوضى لا نظام لها ، فيقتل قويا ضعيفا ، ويتغلب خيها على طيبها ، فإنهم له عواقبه السيئة وأخطاره الشديدة . فما أحرانا ، إن أردنا لأبنائنا نجاحا وفلاحا ، أن نتعهدهم كما نتعهد الزرع ونحرت له الأرض ونرويها ونطهرها من الطفيليات الحبيثة والحشرات المؤذية .

لقد شعر كثير من الناس بنتائج تلك الحال السيئة فاتهموا لها علاجا من طريق تعرف الوسائل الطبية في معاملة أولادهم وغرس روح الاستقلال في نفوسهم . ولكنهم ما لبثوا أن تغلبت عليهم روح الزهو والمناخرة ، فنظروا إلى أبنائهم لا نظرة العاقل الأمين الحريص على فلذة كبده ، بل نظرة المباهى الفخور بجمل ولده . فأصرفوا في تنعيمهم وترفيههم وإظهارهم على أولاد الذير يحسن الهندام وأناقته الملبس ونظامه المركب ، بخنوا عليهم وعلى أنفسهم من حيث لا يعلمون .

لكم رأينا من الأطفال عندنا من يلبسون الحرير والغالي من الثياب بلها ثروة أبيهم لا تسمح بشيء من هذا ، وكم من أم تباهى بأن ابنها يلبس أنفم مما يلبس ابن فلان الثرى ، ومن يبلغ بها الزهو حتى لا تشتري ملابس أولادها إلا من أوروبا ، غير عابئة بالآثر السيئ الذي ينطبع في ذهن الطفل ، فيركز اهتمامه في تلك الناحية ، حتى إذا ما شب ، وجد والده غير قادرين على أن يحفظا له من النعم ما عوداه في نشأته الأولى ، فيقع الخلاف في الأسرة ، ويتلو الولد في مطالبه وهكذا تكون الأسرة ضحية صراع داخلي ، وفريسة تبذير يتبى بخوابها .

وما يؤسف له أن هذا الضعف يسرى في كثير من الأسر ، بطرق شتى ، خصوصا في تربية البنات . فان كثيرا من السيدات يضعن مسألة الزى في المرتبة الأولى من تفكيرهن ، ولا يحسبن لثروتهن أو ثروة أزواجهن أى حساب . فتنشأ البنت في هذا الوسط ضعيفة مبذرة ، لا تستطيع أن تقوم بواجبها نحو منزلها ولا نحو أولادها ، وترى الثروة التي لديها قليلة حتى ولو كانت واسعة ، لأنها لا تستطيع لنفسها تديرا . وبذلك ينتقل الآباء من خطأ إلى خطأ آخر . ذلك أن معالجة أمور الطفل من أدق المسائل وأعقد ، وهي أجدرها بالناية والاهتمام . ولا يصح للإنسان أن يأخذ برأى دون أن يقلب الأمور على جميع وجوهها أو دون أن يبحث عن ذوى الرأى والتجربة للاسترشاد بهم في معالجتها . ومع ذلك فلا يظن إنسان أن التربية والبيئة هما كل شيء ، فان للطبيعة نعمها ولخصائص التي ورثها الطفل عن الأجيال السابقة فتركت في نفسه ، أثرا فعالا في تكوينه . فنحن بوسائلنا إنما نساعد الطبيعة ، ولكنا لا نستطيع أن نخلقها خلقا جديدا . وما الإمرة إلا صورة مصغرة للجمع الذى تعيش فيه . فاذا رمنا لهذا المجتمع صلاحا وجب أن نبدا بالأسرة أولا . فاذا صالحت الأسرة عملت على إصلاح المجتمع .

والآن وقد عرضت لأحد عوامل الضعف في تكوين الأسرة للفرد ، انتقل إلى عامل من عوامل الضعف في تكوين الفرد في المدرسة .

كلنا نسمع الشكوى المرة من حالة التعليم ، ونسمع الصرخة العالية ضد نشر التعليم في الأرياف لأنه يحول بين المتعلمين و(الفيط) ، فالولد الذي يدخل المكتب أو الكتاب يرفض بعد ذلك أن يتولى عملا من أعمال الزراعة . وكثيرا ما نقرأ في الجرائد عن العاطلين من حملة الشهادات وما يجب لهم من التشجيع ، ونقرأ الاقتراح تلو الاقتراح عن وسائل تفريغ تلك الأزمات وعمما يجب على الحكومة إزاءها . وبعد أن كان الناس يقدسون العلم ويرونه خطوة نحو الكمال الانساني ، أصبحوا يشكون في فائدته ويرونه خطرا على المجتمع ، ويرون وجوب الاحتياط في تناوله ، بحيث تقتصر منه على القدر الضروري . وبعد أن كان الشك في فائدة العلم مقصورا على الطبقة الجاهلة من الناس ، أصبح حديث الجميع . ففي أرقى المجالس العلمية نسمع كثيرا من الناس يقولون بوجوب حصر التعليم حتى لا تزداد طبقة المتعلمين الذين لا يجدون وظائف في المجتمع فينتقلون خطرا عليه ، ويكونون أداة اضطراب في البلاد .

وإذا ناقشت هؤلاء القائلين أجابوك على الفور : ألا ترى أن حملة الشهادات أصبحوا عالة على الأمة ؟ ألا تراهم يأتون اليك كل يوم طالبين وظائف حكومية ؟ وكيف تكون الحال إذا ظالمتنا ماضين في هذه السياسة ؟ أليس الأجدربنا أن نعترف بالأمر الواقع ونواجه الحقائق كما هي ، ونترك الأفكار النظرية لتكون عمليين ، وندرك خطر الفوضى عن البلاد قبل استفحال الخطب ؟

فهل صحيح أن الأمور انقلبت رأسا على عقب ، حتى وصلت إلى هذا المد ؟ وهل أصبح العلم خرافة من الخرافات . بعد أن عشنا نفاخر به ، ونحض عليه ، وزدد الحكمة الجارية "اطلبوا العلم من المهدي إلى الخلد" ونلهج بالمثل السائر "اطلبوا العلم وابو في الصين" !

كلا ! لم تتقلب الحقائق . ولكنا رأينا حالة شاذة ، ووجدنا أمامنا اضطرابا في المجتمع كانت مظهره حملة الشهادات وخرمى المدارس ودور العلم . فربطنا إحدى الظاهرتين بالأخرى ، وضل بنا المنطق . واعتقدنا أن الخطر ناشئ من العلم وأخذنا ننادى بالحد منه ، بتقليل عدد طلابه ، ولكنا لحسن الحظ لا نؤمن بهذا المذهب كل الإيمان فليس منا من يرضى أن يعمل بهذه النظرية بالنسبة لأولاده . وإذا طبقت على أحدهم كان أول سماع إلى المطالبة الملحة باستثنائه . أو رأيت أنه أفضح مدافع عن وجوب فتح أبواب التعليم لجميع الناس ، وإلا اضطروا إلى إرسال أولادهم إلى أوروبا . فالحمد لله الذي جعل غريزة الدفاع عن النفس أقوى الغرائز ، فهي تتقلب على جميع النظريات . وكثيرا ما نصل من طريقها إلى الحل الصحيح دون اعتبار لما ينسجه المتفلسفون من الأفكار ، وما ينادى به السنسپاثيون من المبادئ .

الحق أن العلم لا يزال هو هو ، وأن له من القداسة اليوم كل ما كان له في الماضي . ولكن نظم التعليم والمدرسة عندنا تغشاها عيوب جعلتنا نشعر بالأزمة الشديدة التي نشكو

منها اليوم ، فضل كثير من الباحثين ونسبوا إلى العلم ما هو راجع إلى نظم التعليم والمدرسة . فإن مما لا يحتاج إلى دليل أو برهان أن العلم زيادة في المعرفة . وإذا زادت معرفة الإنسان كان أقدر على المكافأة في الحياة ، وأقدر على استثمارها واستثمار خيراتها . فإذا ظهر لنا خطر من حالة من نسميهم متعابين فأنما يكون ذلك لعب في تعليمهم ، وضلال في طريقة تنشئتهم . فالتعليم الأولى ، وكذلك الابتدائي ، بل الثانوي ، لا يمنع الولد من ممارسة أى عمل من الأعمال البدنية في أوروبا . بل يزيده استعدادا له ، ويفتح له مجال التقدم فيه . أما نحن فالحال يصل القتي إلى الشهادة يعتبر نفسه كفتا لنولى وظيفة حكومية ، ولا يرضى بمزاولة عمل أبيه ، من تجارة أو برادة أو طهي أو غير ذلك . فما السر في هذا ؟ لقد استعرضت أمامي عوامل عديدة لتلك الحالة . منها أن المتعلمين عندنا لا يزالون قليلي العدد ، فن تعلم منا اعتبر نفسه انتقل إلى طبقة اراستقراطية تعطيه حقوقا أكبر من حقوق زميله الأوربي . تفسيره وجهته . ولكن كيف لم تستطع الأزمة الشديدة التي مررنا بها أن تخفف من غلواء هؤلاء الناس ؟ بل كيف لا يغير تلك الحالة ما نرى عليه حملة الشهادات من الفقر والوز ؟

الجواب على ذلك أن هذا كله كان يجب أن يغير هذه الحال تماما ، لولا أن في تعليمنا عنصرا يبدو في ظاهره بسيطا ولكنه عميق الأثر في نفسيتنا وطريقة تفكيرنا . ذلك العنصر هو اللباس الذي يرتديه الصبية في المدارس . فلقد قضى النظام المتبع في مدارسنا الابتدائية بأن يلبس الولد الملابس الانجليزية ، فهو منذ صغره يلبس لباسا مخالفا تمام المخالفة للباس والده ، فيتبت في ذهن الولد — بل في ذهن والديه — أنه صار من طبقة غير طبقتهم ، فهو من الحكام ! وأهله من المحكومين . فلا يصح له من تلك الساعة أن يعمل عملهم ، أو يساعدهم في مهنتهم . فهو لن يكون نجارا ولا برادا ولا طاهيا ، بل لا ينبغي له أن يكون ناظر زراعة ولا بائعا ولا تاجرا . يجب أن يكون "أفنديا" في الديوان ! هذا من أهم الأسرار في تلك الأزمة المروعة ، وفي أن المتعلمين من الأوربيين يقبلون تلك المهون ويباشرونها بأنفسهم . وقد يتدرجون فيها إلى أن يكونوا أصحاب ثروة وجاه عريض . أما نحن فلا نتولاها ولا نصل فيها إلى درجة ما . ذلك أنهم لا يأنفون العمل مهما يكن نوعه . بل يحبونه ويحترمونه ويباهون به . أما نحن فتراه مرتبة أقل من مرتبة المتعلم .

ولقد شعر بعض رجال التعليم بهذا الضرر في المدارس الابتدائية وتلافوا جزءا منه في الكاتيب ، ولكن تصرفهم ظل ناقصا فلم يقض على هذا الشعور المسئ في نفس الطفل ، وهكذا ظل ولد الكتاب مخالفا لأبيه ، غير راغب في المزرعة التي يعمل فيها والده عارى القدمين معرضا للطين والتراب بلونان ملائسه وجسده .

أما علاج تلك الحالة فهو أن يكون المكتب صورة حياة الولد المنزلية بحيث لا يخرجها عن حالة البيئة التي يؤهل للعمل فيها . وبهذا العلاج تمنع الفوضى الفكرية التي تلازم الآن

كل من دخل المكتب . أما في المدرسة فيجب أن يلبس الصبغة لباما بسيطا متينا . ومن الغريب أن مدارس البنات في بلادنا ، حتى أرقاها - مصرية كانت أو أوروبية - تتخو هذا النوع ، فالبنات يلبسن جميعا سراويل من نوع واحد ، مصنوعة من نسيج رخيص الثمن . أما الأولاد فيلبسون أربطة الرقبة الحريرية ، والأقمشة الغالية الدقيقة الصنع . والأحذية الرشيقة . فما هذا ؟ وكيف نتظر للولد بعد هذا التالى أن ينشأ رجلا قويا يشتغل بساعديه ولا يبالي مجهود الرجال الجثماني .

نشأ الأولاد هذه النشأة النافعة ، نشأة البساطة والقوة والاعتدال على النفس ، تروا منهم رجالا يحبون العمل ويتهضون به بنجاحهم فيه ، فيكونون ملوك الصناعة والزراعة والتجارة ، كما هي الحال في أوروبا . أما تلك العيشة الناعمة فليست من شأن الرجال الناضجين .

جربوا هذا وقدروا تأثيره الأدبي والنفسى في الأطفال وذويهم . ثم قدروا ما يرد من الخير على تلك الطبقة المتوسطة من الأمة ، تلك الطبقة التي رزقت من الصفات الخلقية المثارة ، ومن حب العمل والاجتهاد والمثابرة ما تغيبط له أشد الاعتباط ، وما يقلل من تكاليف أولادهم ؟ ويعودهم الاعتماد في معيشتهم ، لأن تربية أولادهم تصبح في متناول أيديهم . فينشئون نشأة صالحة يزول معها كثير من أسباب الخلاف الذي ينجم من عجز الآباء عن تحقيق أطماع أولادهم في الملابس والمعيشة ، لأن المناظرة فيها ستزول بارتداء الأولاد جميعا رداء واحدا . هذه ناحية من نواحي الضعف في المدرسة .

وهناك ناحية أخرى ترتبط بها . فنحن كما نسمع الشكوى عالية من أصحاب الشهادات ، نسمع مثلها من جانب الجامعة ورجال التعليم العالي ، فهؤلاء يقولون إن مستوى الثقافة في الشهادة الثانوية أقل مما يؤهل للدراسات العالية . ولذلك طالب الكثيرون بتعسر من يدخلون المدارس العالية على عدد محدود ، أو اشتراط نسبة مخصوصة من النجاح في الشهادة الثانوية .

وهن جهة أخرى نسمع صيحة لآباء الشبان الحائزين للشهادة الثانوية الذين لم يقبلوا في المدارس العالية ، فهم يقولون ماذا نصنع بابائنا وقد وصلوا إلى درجة من العلم هي باقراكم كافية لتدرجهم في التعليم العالي ؟ وبين هذين الرأيين نرى وزارة المعارف تتذبذب في تطبيق المبادئ . فهي تطورا مع الفريق الأول ، وطورا مع الفريق الثاني ، فإذا ما اتبعت الرأي الأول كثر عدد العاطلين ، وإذا ما اتبعت الثاني انحط مستوى التعليم ، وبال الشهادات العالية من ليسوا أهلا لتولى الأعمال التي يجب أن يهيئهم لها ذلك النوع من التعليم . فإذا لم يجدوا عملا صرخوا صرخة طلاب " البكالوريا " الذين لم يجدوا محلا في المدرسة . وبذلك تكون الإزمة قد انتقلت من حائزي الشهادة الثانوية إلى طلاب الشهادات العليا أو حائزيها .

ولو أننا وجهنا الأمور على حقيقتها لكان علاجها يسيرا . ذلك أننا نرى المدارس العالية تشترط نسبة للنجاح هي ٦٠ في المائة . بينما ير الطالب في الشهادة الثانوية إذا جاز الامتحان

بنسبة ١٠ في المائة ، واليون شاسع بين الدرجتين في التحصيل ومن الواجب أن يكون الطالب في الشهادة الثانوية مؤهلاً حقيقة للدراسة العالية ، وأن تكون مقدرته على التحصيل قريبة من الدرجة المطلوبة للدراسة العالية . وبذلك يزول الإبهام الموجود في النظام الحاضر ، ويحدد الآباء ميزانا صحيحا يستطيعون أن يزنوا به استعداد كل من أبنائهم ، ويكون الحاصلون على الشهادة الثانوية قادرين على الاستمرار في الدراسة العالية ويحق لهم عند ذلك أن يطالبوا وزارة المعارف بأن تعمل على إيجاد الأمكنة الكافية لجميع المتعلمين الذين وصلوا إلى درجة معينة تسمح لهم بمتابعة دراستهم العالية . وميزول الخطر الذي نخشاه لأن العدد سيقصر بمجرد تطبيق هذا النظام على من يكونون صالحين حقا لتلقي التعليم العالي ، والذين تؤهلهم كفايتهم للأعمال المنتجة بعد ذلك . وهذا الذي أريد في الدراسة العالية ، هو نفسه الذي يرشد إلى الحل الصحيح لبعض مشاكل الدراسة الثانوية ، فشهادة الكفاءة ، أو شهادة الدراسة الثانوية ( قسم أول ) يجب أن تكون على درجتين إحداهما تعد للدراسة الثانوية فالعالية ثم لمستوى الثقافة والتعليم النظرى والعملى العالى ، والأخرى تعد للمدارس الصناعية والزراعية والتجارة المتوسطة .

أما الشهادة الابتدائية ، فلعمري لست أدري ما المبرر لبقائها سوى تحميل الوزارة والمدرسين والمتحنيين عبئها وتضييعهم الوقت على غير جدوى لإجراء امتحاناتها ، وهذا فضلا عما هو ثابت في أذهان الناس جميعا من أن الشهادة تؤهل صاحبها للعمل ، وتعطيه حقا على الدولة والمجتمع ، فن حاز شهادة رأى لنفسه هذا الحق ، وثبتت في ذهنه المطالبة بمستوى معين من الوظائف والأعمال . فما الداعي إلى إبقاء هذه الحالة ، سوى مساعدة العوامل التي تتعاون على مضاعفة الأزمة ، وزيادة طبقة غير القانعين في البلاد ؟

لذلك نرى لعلاج هذه الحالة أن تكون المرحلة الأولى هي شهادة الكفاءة . على أن يجعل الناجحون فيها فريقين : أولهما الفريق الممتاز الذي يرهن على استمداد لمتابعة الدراسة الثانوية فالعالية ، والثاني هو الفريق الأقل استعدادا ، والذي لا يصلح للمتابعة الدراسة في المدارس الصناعية والزراعية وغيرها . وإذا نحن جعلنا الوسط المعاشى في المدارس الابتدائية — الى الكفاءة — على ما قدمنا ، فإن الأولاد لا ينفرون عند ذلك من مزاولة مهنة آباءهم وأهلبيهم . وبذلك نساعد على إيجاد طبقة نالت حظا من التعليم يمكنها أن تعمل بنشاط على رقى البلاد الصناعى والزراعى ، ونتلافى أزمة من أشد الأزمات التي تهددنا في مستقبلنا ، ونفرض في نفوس الأمة وشيبتها أن العمل وحده عصب الحياة وتقدمها .

بهي الدين بركات